مصطفى الزايد ـ سورية

مَلْحَمَةُ الإنْسان

في لُجَّةِ اليَأسِ بالشُّطآن مَخْذولُ
قَلْبٌ جَفَتْهُ سُعادٌ فَهْوَ مَتْبولُ

يَسْتَنْزِفُ الفكْرُ جُرْحاً فيه مُنْكَسِراً
في خَيْمَةِ العَجْزِ يَسْتَرْضيهِ تَعْليلُ

حَتّى تَبَلَّدَ في مِشْكاتِهِ قَبَسٌ
في رَكْبِ عُمْيٍ حَواديهِ الأَضاليلُ

ضاقتْ بِهِ الأرضُ أم ضاقَتْ مَرابعُهُ
لا فرقَ إنْ ضاعَ في الوجهِ التّفاصيلُ

جاشَتْ بِهِ اليومَ أصْداءٌ مرنَّمةٌ
بالماضياتِ وماءُ الوصل مبذولُ

وما عَلِمْتُ سُعاداً غَيْرَ مُوفِيَةٍ
وَعْداً إذا كانَ دَأْبَ النّاسِ تَدْجيلُ

إن أبرَقَتْ عِدَةٌ في عَيْنِها سَطَعَتْ
في الخافِقَيْنِ تُجلّيها التّهاليلُ

أمّا إذا احْمَرَّ في أمْرٍ لها حَدقٌ
فالحِصنُ يرجُفُ والتيجانُ والغيلُ

لا تُشْرِقُ الشَّمْسُ إلّا مِنْ غَدائِرِها
وَلا لِطَيْرٍ سِوى ما غَرَّدَتْ قِيْلُ

ولا لِبَحْرٍ على أقْرانِه سَمَةٌ
ما لَمْ يَنَلْ قَدَمَيها مِنْهُ تَغْسيلُ

وكلُّ عَينٍ لها في القلبِ فِعْلَتُها
لكن عيونُ سُعادٍ والأفاعيلُ

كَمْ هالَ ذا الفِكْرِ إسْفارٌ فَهامَ بِها
وَقَدَّ زُنّارَ رُهْبانٍ تراتيلُ

وَما رَماها بِسوءٍ غَيرُ ذيْ عِوَجٍ
مَريضِ ذَوْقٍ تَوَلّاهُ الهَواميلُ

وكانَ مِنْ قَبْلِه أبْدى عَلى دَخَلٍ
لَها المَوَدَّةَ في العَلْياءِ ضِلِّيلُ

لمَّا رأى اللَّوحَ يُنبي أن سَيَحْمِلُها
خليفةُ اللّهِ أغْوَتْهُ التَّعالِيلُ

فَراحَ يزعُمُ إخلاصاً لِبارِئِها
عَسى يُروّي جُموحَ العُجْبِ تَنْويلُ

حتّى حَبا الخالقُ الإنْسانَ مَوْثِقَها
وإذ مَزاعِمُهُ فيها أباطيلُ

لمّا رأى صورةَ الرَّحمنِ يمنحُها
لهيكلِ الطِّينِ أعمتْهُ التَّآويلُ

أبى السُّجودَ وقد عَنَّ القياسُ لَهُ
كِبْراً وَقائِسُ أمْرِ اللّهِ مَخْبولُ

وَلاخْتبارِ صَدوقِ الحُبِّ أُطْلِقَهُ
إذْ قالَ ذَرْني وَطِيْناً فِيهِ تَفْضيلُ

لأُغْوِيَنَّ بنيهِ ثمَّ آمرُهم
فلا يُرى منهمُ بالشُّكرِ مشمولُ

هَذا عَدُوُّكَ يا إنْسانُ مُشْتَبِهاً
لا مُشْبِهوك وإنْ ضَراكَ مَعْقولُ

يَسُلُّ من لُجُمِ الأهْواءِ طَيِّعَها
وَغايةُ البَغْيِ إفْسادٌ وَتَقْتيلُ

وباذلٍ نَفْسَهُ يَسْتَنُّ فاحشةً
في قومِ لوطٍ لِيَتْلوهُمْ أماثيلُ

مغيِّرينَ بخلقِ اللَّـهِ عَـن عِـــدَةٍ
أَلْقى بهـا يـومَ إبـلاسٍ عـــزازيـلُ

مـا كـانَ قابيْـلُ مُسْتَنّاً بِسـابِقَةٍ
لَـمّا اسْـتَـزَلَّـهُ فَاسْـتَـشْـرَى قَـوابـيـلُ

يُغري المُلوكَ بِقَتْلِ الأَنْبِياءِ وَمِنْ
غَوْغاءَ إِذْ فَجَروا قَالُوا لَهُم مِيلوا

وَحِيْنَ لَمْ يَبقَ مِنْهُمْ غَيْرُ خَاتَمِهِمْ
لألاؤهُ مِـنْ ذُرا فـارانَ تَهْلِيْـلُ

أزاحَ عَـنْ دِيْـنِ إبْـراهِـيْـمَ أُمَّتَـهُ
وَدَسَّ لِـلْبَيْتِ هَـدْماً فَـأَسُـهُ الـفِـيْـلُ

وَزَيَّـنَ الـنَّـذْرَ كَـيْ يَغْتـالَ وَالِـــدَهُ
ذَبْحَ الـوَفاءِ إذا مـا أَعْـشَـرَ الجِيْـلُ

وَمـا لَـهُ عِـلْمُ غَيْبٍ غَـيرَ مـا لَـمَحَتْ
عَـيْـنـاهُ فـي الـلَّـوْحِ أَوْ أَبْـداهُ تَـنْـزِيـلُ

فَحَلَّ فـي هُـبَـلٍ يَخْـتـارُ إِذْ ضَـرَبُـوا
قِـدْحَ الأَغَـرِّ وَبـالُ الـقَـوْمِ مَـشْـغـولُ

يُقصي الفداءَ فلما أكْمَلَتْ مئةً
تُسَنُّ في العَقْلِ عَزَّ القِدْحَ تخْذيلُ

ما أحْكَمَ اللَّهُ أمرٌ لا يُعَطِّلُهُ
كَيدٌ وَلَوْ هُوَ فَوْقَ النَّحْرِ مَسْلولُ

فأنْقَذَ النُّورَ في صُلْبِ الفَتى وَعَلا
جُنودَ أبْرَهَةٍ وَالفيلَ سِجّيلُ

لِكَي يُضيْءَ حراءً ما يَرُوْعُ بِه
أَمِيْنَ أرْضٍ أَمِيْنُ اللَّهِ جِبْريلُ

اقْرَأْ، لِيَفْتَحَ أمِّيٌّ كُنوزَ نُهىً
في النّاسِ إذْ هْيَ مَطْموسٌ وَمَقْفولُ

فَخافَ إبليسُ أنْ يَسْقي الظِّماءَ هُدىً
يَنْبوعُ صِدْقٍ بِشَهْدِ الوَحْيِ مَعْلولُ

فصدَّهم بالّذي أغواهُ من قِدَمٍ
إذْ لم يَعُدْ في رِكابِ المَجْدِ تَمْييلُ

أنّى لَهُم بَعْدَ كُلِّ البَذلِ مَنْزِلةٌ
لِهاشِمٍ نَبعُها وَحْيٌ وتَنْزيلُ

فَأزَّهُمْ لِيَصُدّوا عَنْهُ مَنْ سَمِعُوا
بِأنَّ مكَّةَ فيها ضاءَ قِنْديلُ

وَغاظَهُ صَبْرُهُ فَاحْتالَ مُسْتَوِياً
شَيْخاً بِنادي الأُلى في صَبْرِهِمْ عِيلوا

يُشيرُ بِالرّأيِ في تَفريْقِ مَقْتَلِه
بَيْنَ البُطونِ فَوَجْهُ الخَصْمِ مَجْهولُ

فَأكْرَمَ اللَّهُ أنْصاراً بِهِجْرَتِه
لِيَطْلُعَ البَدْرُ فِيْهِمْ وَهْوَ مَقْبولُ

في أرضِ نخلٍ وبينَ الحَرَّتَيْنِ كما
في وَصْفِها جاءَ تَوراةٌ وإنجيلُ

أقامَ فِيْهِمْ يَهُودٌ قَبْلَ مَولِدِه
عَلى انْتِظارٍ لَهُمْ في الوَعْدِ تَأمِيْلُ

يَسْتَفْتِحُونَ وَكَمْ جاءَتْ شَفاعَتُهُ
بِنَصْرِهِمْ وَهْوَ في الأصْلابِ مَجْدولُ

وأوْعَدوا أنّ خَتْمَ الأنبياءِ إذا
دَنا الزّمانُ مِن ابْراهيمَ منسولُ

لِيَسْتَرِقّوا الوَرى في ظلِّ رايَتِه
حُلْمَ الذّليلِ بهم أوْرَثَهُ بابيلُ

لمّا رَأَوْا رَوْضَ إسْماعيْلَ مَطْلَعَهُ
عَمُوا وَنَعْتُهُ - كَالأبْنَاءِ - مَنْقولُ

مُحَمَّدٌ تَرْجَموهُ المُشْتَهى خَتَلاً
وَما نَبِيٌّ عَلى الشَّهْواتِ مَجْبولُ

لِيَسْتفزَّ عَدُوُّ الخَيْرِ غَدْرَتَهُمْ
صَخْراً وسُمّاً كأنَّ الوَحْيَ مَبْتولُ

صاحَتْ لَدَيْه ذراعُ الشّاة مُشْفقةً
يا سَيِّدَ الخَلْقِ فِيّ السُّمُّ مَغْلولُ

وكانَ لمّا غَدا للشّام حَذّرَهُ
مِنْهُمْ بَحِيرا وَخَطُّ اللّوحِ مَفْعولُ

ما وَعْدُ مُوسى بِمُغْرِيْهِمْ وَقَدْ مَكَرُوا
يَوْماً وَلا بِوَعِيدٍ حَالَ حِزْقِيْلُ

حَتّى إذا بَلَّغَ الإسْلامَ مُكْتَمِلاً
وَفِي اخْتِيارٍ وفي التّخْيِيْرِ تَفْضَيْلُ

مـاتَ الـنّـبـيُّ وَمـا مالَتْ شَـريْعَـتُـهُ
وَلِلأنـــامِ بِكُـلِّ النُّظْمِ تَحـويـلُ

حَـتّـى الـنّـبـيُّـونَ إلا الـفَـذَّ خـاتَـمَهُـمْ
مِـنْ بَعْـدِهِـمْ نـابَ مـا أرْسَـوْهُ تَبْـديـلُ

فَنَسَّبُوهُـمْ إلى الرّحْمَنِ وَاصْطَرَخُوا:
حَـبْـلُ الـنّجـاةِ بِهَـذا الإفْكِ مَغْـزولُ

فـأصْبحَ الـدّيـنُ إيْمـانـاً بـلا قِـيَـمٍ
يَـغْـذوهُ ظَـنٌّ مِـنَ الأوْهـامِ مَعْـسـولُ

فَالظّالِمُونَ نَجَوْا بِالشِّرْكِ ما اجْتَرَحُوا
وَالصَّالِحُـونَ عَلى التّوحِـيْـدِ قَد نِيْـلوا

فَـأيْـنَ يُـدْرَكُ عَـدْلُ الـلّـه لَوْ صَـدقُـوا
وَأيُّ عَـقْـلٍ بِـهِ تَـرسُـو تَخـايِـيْـلُ؟

فـمـا بَـقـاءُ نَـبِـيٍّ فـي مُـؤَلِّـهِـه
إلا بَـريـقُ شِـعـاراتٍ وتَـمـثـيـلُ

ها هُـم يُديرون أَسْلاً حَيثُ شَـرعَـتُهُمْ
بِـأن تُـدارَ لَـدى الـبَـغْـيِ الأَسـايـيـلُ

وَأنتَ أعْبَـــدُ خَـلْـقِ اللّـــه بـاقِيَـــةٌ
في تابِعِـيـكَ مَـعَ الفَـرْضِ الـنَّـوافِـيْـلُ

الجاعـلـيـنَ كـتـابَ الـلَّـــه جَـنَّـتَـهَـمْ
طَـيَّ الصّـدورِ بـهِ رُشْـــدٌ وَتَجـمـيـلُ

والحافـظـيـنَ أحـاديـثـاً نطـقْـتَ بـهـا
وفي الـرُّواةِ لَـهُـمْ جَـرْحٌ وتَـعـديـلُ

والمُـنْكـريـنَ عَـلى الـبـاغـي تَـجَـبُّـرَهُ
والـمُـبْـصـريـنَ إذا أعْـمَـتْ نَـوازيـلُ

«وأنتَ فيهِـم» فَما يَعـْرو الـقُـلوبَ إلى
غَـيرِ الّـذي جِئْتَ مهما شَـقَّ تَمْـيـيـلُ

التاركيـنَ فـراشَ الـدِّفْء في غَلس
إلـى الـصـلاةِ إذا لَجّـتْ مكـاســيـلً

والظّامئينَ بِشَهْرِ الصّوم في سَغَبٍ
والماءُ في يَـدِهِـمْ والقُـوتُ مَـبْـذولٌ

والـبـاذليـنَ لحَـجِّ الـبَـيْـتِ كَـــدَّهُـــمُ
عُمراً بِهِ القلبُ بالحِـرْمانِ مَـغْـلـولُ

والـنَّـازِفِـيْـنَ لَـدَى الـشُّـبَّاكِ أدْمُـعَـهُـــمْ
لا مُـذْنَـبِـيْـنَ وَلا فـي الـقَـبْـرِ تَهْـوِيْـلُ

بَـوْحٌ مِنَ الـوَجْـدِ يَحْـدوهُمْ وَتُلْـجِـمُهُـمْ
جَـلالَـــةٌ لَكَ فـي الـلُّـقْـيـــا وَتَبْـجـيـــلُ

يسْـتَشعـرونكَ من خلْفِ الترابِ ترى
تلكَ الـوجـوهَ فَـيَغْـشـاهـنَّ تـهـلـيـلُ

لا زِلْتَ فِيْهِـمْ بِأفْـعَـالٍ غَـدَتْ سُـــنَـنـاً
ما مَـسَّـهُـنَّ بِطـولِ الـدَّهْـرُ تَـعْـطِـيْـلُ

فالمَـشيُ والثوبُ والسُّـقيا ومأكـلُهم
والـنّـومُ فـيـهـــا لِـمـا أدَّبْـتَ تأثـيـلُ

قـصّاً على الإثْـر سَيّارونَ مَطْـلَبُهُمْ
بِـكَ التَّـشَـبُّـهُ لَـوْ عـابَتْ خَـواتِـيْـــلُ

حَـتّى الـمـلـوكُ إذا مـا أبْـصَـرُوا أثَـراً
مِنْـكَ اسْـتَـبَـاهُـمْ لَـهُ لَـمْـسٌ وَتَـقْـبِـيْـلُ

مـاتَ الـنَّـبِـيُّـــونَ لا عَـيْـــنٌ وَلا أثَـــرٌ
فـي الـتّـابِـعِـيْـنَ وَإنْ غـالَتْ أقـاوِيْـلُ

إلّاكَ دِيْنُـــكَ مَحْفُـــوظٌ نَقَـــاوَتُـــهُ
كأنَّـهُ الـرَّوْضُ فـي نَـيْسـانَ مَطْـلـولُ

فالـزَّهْـرُ يَنـفـحُ والأشـجـارُ مُثْـمِـرةٌ
والطَّـيـرُ يَصْـدَحُ في نَجْـواهُ ترتـيـلُ

والشّمسُ تَحْضُنُ في حُسْنٍ ذوائبُها
نَواصيَ النّخـلِ حَـتى انْحـازَ تَظـلـيـلُ

وليـسَ يُولـدُ تَضْـلـيـلٌ إذا اعْـتَـنَـقـا
فَالظِّـلُّ في النُّـورِ لا يَغـشـاهُ تضليلُ

يُضيءُ فـيـه سَـنا التَّوحيـد مُلْتَمِـساً
بابَ السّـمـاءِ فَـتَسْـتَخـذي التّـمـاثـيـلُ

كَـيَـــوْمِ مَـوْلِـــدِهِ شَـرْعٌ عَـلى خُـلُـقٍ
يَـصُـونُ شَـطَّـيْـهِ تَـحْـرِيْـمٌ وَتَحْـلِـيْـلُ

هَـــذي وَرَبِّـــكَ أجْـلى الـمُـعْـجـزاتِ إذا
عَـفـا الـدَّلِـيْـلُ أوِ اسْـتَـخْـفـاهُ مَـدْلـولُ

يـا آمـراً أنْ يُحِـــدَّ الـمَـرْءُ شَـــفْـرَتَـهُ
كَيْ لا يَكُـونَ بِـنَحْـرِ الـذِّبْـحِ تَـنْـكـيـلُ

وناهيـاً أنْ تُصيْبَ النَّمْلَ مَقْتَلَةٌ
وأنْ تُرَوِّعَ بِالفَــرْخِ المَطافِيْــلُ

أفْديكَ مِنْ راحِـمٍ يَلْقى شَــفاعَتَهُ
إلى القِيامَةِ مَقْتُـوْلٌ وَمَهْـزُوْلُ!

ونحنُ أضعفُ منهمْ يومَها فَلَنا
أنتَ الغَداةَ وَهـذا اليَومَ مأمــولُ

لَنا رَجاءٌ لِكُـلِّ النَّاسِ مَنْفَعَـةٌ
بِمــا بُعِثْتَ وَمَنْجــاةٌ وَتكْمِيْلُ

علَّمْتَنا أنَّهمْ إخوانُنا فَلَهُــمْ
حقُّ النّصيحةِ لا قتــلٌ وتَذليــلُ

إلا إذا أغْلقَ الطّاغونَ بابَ هُدىً
دونَ الشُّعوبِ فَسَيفُ اللّــهِ مَسْلولُ

صَلَّتْ عَلَيْكَ قُلُوْبُ المُنْصفيْنَ وَإنْ
هُــمْ خالَفُــوكَ بِدِيْنٍ قُلْتَ مَنْحُــوْلُ

فَصَنَّفُوا خيْرةَ الإنْســانِ في مئَةٍ
رُتِّبْتَ أوَّلَهُــمْ فَالْكُــلُّ مَفْضُــوْلُ

يـا قـاسـمَ الخَـيْـرِ والـرَّحْـمـنُ مُـنْـزِلُـهُ
بَحْـراً يَـفـيـضُ وَمُـزنـاً سَـيْـبُهُ الـنّـيْـلُ

إنّـي يُـجِـلُّـكَ عَـنْ عَـرْضي لِـمَسْـأَلَـةٍ
عِـلْمي بِمِثْـلِكَ ما في الأرضِ مَسْـؤولُ

فـاقْـبَـلْ بِـضـاعَـتيَ الـمُـزْجـاةَ إنَّ يَـــداً
بَـيْـضـاءَ مِـنـكَ أمـانِـيٌّ مَـثـاقـيـــلُ

واقْـبَـلْ وُقـوفي مَقـامـاً لـسـتُ أدْرِكُـهُ
بِـمـا لَـــدَيَّ وآثـامـي عَـــراقـيـــلُ

واقـبـلْ سَـلامَ ضَـعـيـفٍ هَـمُّـــهُ جَـلَـلٌ
لَـكِـنَّ هِـمَّـتَـــهُ وَهْـــنٌ وتَـأجـيـــلُ

صَـلّى عَـلـيـكَ صَـلاةً لا حُـــدودَ لَـهـا
رَبِّـي وَسَـلَّـمَ مـا جـادَتْ هَـواطـيـلُ

يا عاشِقَ النُّـورِ إنَّ الشَّمْسَ مُشْـرِقَةٌ
لَـكِـنَّ طَـرْفَـكَ بِـالأَهْـــواءِ مَـعْـزُوْلُ

فَـلِـلْعَـدُوِّ بِمَهْوَى الـنَّـفْـسِ وَسْـوَسَـةٌ
وفي صِراطِ الهُدى مِـنْـهُ أَحـابِـيْـــلُ

فَأخْــزِهِ وَاحْـتَـكِـمْ لِلْـعَـقْـلِ مُـنْجَـرِداً
فَـكُـلُّ إِرْثٍ يُـنـافِـي الـعَـقْـلَ مَـرذُوْلُ

وَفُــزْ بِمَعْــرِفَــةٍ مِـمّـنْ بِــهِ خُـتِـمَـتْ
رَسَـائِـلُ الـلّــهِ إِنَّ الحَبْـلَ مَوْصُـوْلُ

صَلّى عَـلَـيْـهِ مَـعَ الـتَّـسْـلِـيْـمِ مُرْسِـلُـهُ
والآلِ مــادامَ إِيْـمــانٌ وَتَـبْـتِـيْـلُ

مصطفى الزايد - سورية